قوائم المحتويات متاحة على المجلات الاكاديمية العراقية

مجلة البحوث والدراسات الاسلامية

الصفحة الرئيسية للمجلة:https://djisrs.dws.gov.iq

دلالات (كان) بين النحو التقليدي وطرح الدكتور فاضل السامرائي في كتابهِ معاني النحو

The Semantic Functions of *Kāna*: A Comparative Study Between Traditional Grammar and Dr. Fāḍil al-Samarrai's Approach in *Maʿānī al-Naḥw*

م.د مثنى عدنان محمد عداي*

Keywords

Kāna, Grammatical Semantics, Traditional Arabic Grammar, Fadel Al-Samarrai, Maʿānī al-Naḥw.

Abstract

This study examines the semantic functions of the auxiliary verb **(kāna)** through a comparative analysis of the traditional Arabic grammatical approach and the semantic perspective presented by **Fadel Al-Samarrai** in his book *Maʿānī al-Naḥw (Meanings of Grammar)*. The research aims to identify the various meanings of **kāna**, explore the similarities and differences between the two approaches, and highlight the role of context in determining meaning. The study adopts a descriptive-analytical methodology by examining Qur'anic and linguistic evidence, analyzing the opinions of classical grammarians, and comparing them with Al-Samarrai's interpretations. It discusses the principal semantic functions of **kāna**, including temporal reference, continuity, expectation, circumstantial meaning, futurity, transformation, ability, completeness, past reference, and emphasis. The study concludes that the primary function of **kāna** is to express temporal reference as a defective verb, whereas many of its attributed meanings arise from contextual and syntactic factors rather than from the verb itself. This finding underscores the importance of contextual semantics in interpreting Arabic texts, particularly the Qur'anic discourse.

* **Lect. Dr. Muthanna Adnan Mohammed Adday**

معلومات المقال

تاريخ المقال:
الإرسال:
المراجعة:
القبول: ٢٠٢٦/٦/١

الكلمات المفتاحية:
كان، الدلالة النحوية، النحو التقليدي، فاضل السامرائي، معاني النحو.

المستخلص

يتناول هذا البحث دلالات الفعل الناسخ)**كان** (من خلال دراسة مقارنة بين ما قرره النحو العربي التقليدي وما طرحه الدكتور **فاضل السامرائي** في كتابه *معاني النحو* .ويهدف إلى الكشف عن الدلالات المختلفة لـ(كان)، وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين المنهجين، مع التركيز على أثر السياق في توجيه المعنى. واعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، من خلال استقراء الشواهد القرآنية واللغوية، وتحليل آراء النحاة، ثم موازنتها بطرح السامرائي. وقد تناول البحث أبرز دلالات (كان)، ومنها الدلالة الزمنية، والاستمرار، والتوقع، والحال، والاستقبال، والصيرورة، والقدرة، والتمام، والماضي، والتأكيد، مع بيان الأسس التي استند إليها كل اتجاه في تفسيرها. وتوصل البحث إلى أن الأصل في (كان) أنها فعل ناقص يدل على الزمن، وأن كثيرًا من الدلالات المنسوبة إليها لا تُعد دلالات ذاتية، وإنما تنشأ من السياق والتركيب، وهو ما يؤكد أهمية البعد الدلالي في فهم النصوص، ولا سيما النص القرآني.

١. المقدمة

تُعدُّ الأفعال الناسخة –وعلى رأسها الفعل كان– من أكثر القضايا النحوية والدلالية إثارةً للبحث والاختلاف؛ لما تنطوي عليهِ من تنوع في الاستعمال، وتعدد في الدلالات، وتداخل بين الوظيفة النحوية والأثر الدلالي في السياق، وقد شغل هذا الفعل حيزًا واسعًا في الدرس النحوي التقليدي، فدرسهُ النحاة من جهة العمل والإعراب، ومن جهة الدلالة الزمنية، وتفرعت عن ذلك أقوال متعددة بلغت حد الخلاف في كثير من مواضعه.

ويكتسب هذا البحث أهميتهُ من كونهِ يتناول دلالات (كان) في ضوء مقارنتها بين النحو التقليدي والطرح الدلالي الذي قدّمه الدكتور فاضل السامرائي الذي اتجه في دراساتهِ إلى تجاوز النظرة الإعرابية الصرفة، وربط الدلالة بالسياق القرآني والتركيبي، مبينًا أنَّ كثيرًا من المعاني التي نُسبت إلى (كان) ليست دلالات ذاتية للفعل، وإنَّما هي معانٍ سياقية تُستفاد من التركيب والمقام، ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن دلالات (كان) المختلفة، وبيان مدى اتفاق أو اختلاف طرح الدكتور فاضل السامرائي مع ما قرره النحو التقليدي، مع الوقوف على منهجهِ في تفسيرِ هذهِ الدلالات، ولا سيما اعتماده على السياق القرآني بوصفهِ عنصرًا حاسمًا في توجيه المعنى، كما يسعى البحث إلى إبراز أنَّ (كان) في أصلها فعلٌ ناقصٌ دال على الزمن، وأنَّ ما عدا ذلك دلالات إنَّما هو ثمرة للتفاعل بين الصيغة والسياق.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتبع المنهج الوصفي التحليلي، القائم على استقراء الشواهد القرآنية واللغوية، وتحليل آراء النحاة ثم موازنتها بطرح الدكتور فاضل السامرائي وصولًا إلى رؤية دلالية أكثر شمولًا.

وجاءت خطة البحث على النحو الآتي:

أفتُتِحَ البحث بمقدمة بينت أهمية الموضوع وأهدافه ومنهجه، وبعد ذلك عُرِضَت دلالات (كان) المختلفة، بدءًا من دلالتها الزمنية، مرورًا بدلالات التوقع، والاستمرار، والحال، والاستقبال، والصيرورة، والقدرة، والتمام، وانتهاءً بدلالتي الماضي والتأكيد، مع بيان موقف النحو التقليدي منها، ثم تحليل طرح الدكتور فاضل السامرائي في كل دلالة على حدة،

وختم البحث بخاتمةٍ تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

دلالات (كان) بين النحو التقليدي وطرح الدكتور فاضل السامرائي

الدلالة الأولى: (الماضي المنقطع): تستعمل (كان) عند النحاة للدلالة على الماضي المنقطع، وهو ما انتهى عن زمنه ولم يستمر إلى الحال[١]. وينقسم هذا الاستعمال على ضربين:

أ- **الماضي الدال على الاتصاف الثابت:** وهو ما يراد به اتصاف الاسم بالخبر في الزمن الماضي على وجه الثبوت والاستقرار، من غير دلالة على الانقطاع أو التجدد كقولهِ تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً﴾ [التوبة:٦٩][٢] فـ(كان) هنا لا تدل على مجرد وقوع الحدث، بل على اتصاف مستقر بالقوة في زمن سابق، وهو المعنى الذي ركز عليه النحاة في حديثهم عن دلالة (كان) الأصلية، إذ يجعلونها دالة على قيام الصفة بالمبتدأ في الزمن الماضي[٣].

ب- **الماضي الدال على الحدوث غير الثابت:** وهو ما يُراد بهِ أنَّ الحدث وقعَ مرة واحدة أو مرات معدودة في الزمن الماضي، من غير أن يكون صفة ملازمة أو وصفًا ثابتًا، وذلك إذا جاء خبر (كان) فعلًا ماضيًا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ [الأحزاب:١٥]، أي: أحدثوا عهدًا سابقًا[٤].

وقد اعترض ابن يعيش على هذا الاستعمال إذ قال: ((ولا يحسن وقوع الفعل الماضي في خبر (كان)؛ لأنَّ أحد اللفظين يغني عن الآخر))[٥]، إذ يرى أنَّ الجمع بين (كان) والفعل الماضي، تكرر دلالي لا حاجة إليه؛ لأنَّ الفعل الماضي وحده كافٍ في إفادة الزمن.

---

(١) يُنظر: الإتقان في علوم القرآن: ٢٥٦/٢، والموسوعة القرآنية: ١٩٤/٢، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن: ٢٤٥/٢، ومباحث في علوم القرآن: ٢١٥/١، ومعاني النحو: ١٩١/١.

(٢) يُنظر: أسرار التكرار في القرآن: ٢٠١/١، وإعراب القرآن للنحاس: ٢٢٧/٢، ومعاني النحو: ١٩١/١.

(٣) يُنظر: الإتقان في علوم القرآن: ٢٥٦/٢، ومعاني النحو: ١٩١/١.

(٤) يُنظر: مباحث في علوم القرآن: ٢١٥/١، ومعاني النحو: ١٩١/١.

(٥) شرح المفصل لابن يعيش: ٣٤٤/٤، ومعاني النحو: ١٩٣/١.

فيرد عليه الدكتور فاضل السامرائي هذا الاعتراض، ويرى أنَّ وقوع الفعل الماضي خبرًا لـ(كان) ليس خطأ ولا حشوًا بل هو استعمال فصيح وارد في القرآن الكريم ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف:٢٧]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس: ٩٨][(١)].

ويرى السامرائي أنَّ الجمع بين (كان) والفعل الماضي يؤدي دلالة خاصة لا يحققها الفعل الماضي وحده، وهي تفيد الحدث بزمن ماضٍ مع إفادة عدم الثبوت.

فإذا كان خبر (كان) فعلًا ماضيًا، دلَّ ذلك على أنَّ الفعل حصل وانقضى ولم يكن صفة ملازمة لصاحبهِ ويضرب لذلك مثالًا بالفروق الدقيقة بين (كان محمدٌ كاتبًا) يدل على وصف مستقر في الماضي (كان محمدُ كتب في هذا الأمر يدل على فعل وقع مرة واحدة وكذلك:

(كان زيدٌ فاجرًا)= اتصاف دائم.

(كان زيدٌ فجر)= حصول الفعل دون الدوام.

ومن هذا المعنى قولهم في الدعاء: (فاغفر له اللهم إن كان فجر). أي: إن كان قد وقع منه هذا الفعل في وقت ما؛ لأنَّهُ متصف به على جهة الثبوت[(٢)].

وخلاصة ما تقدّم أنَّ النحو التقليدي يميل إلى التقليل من شأن الفروق الدلالية الدقيقة بين الخبر الأسمي والفعلي مع (كان).

بينما يبرز الدكتور فاضل السامرائي القيمة الدلالية السياقية لهذا الاستعمال، ويرى أنَّ القرآن الكريم استثمر (كان مع ماضٍ) لإفادة الحدوث المنقطع غير الثابت، وهو معنى لا تؤديه الصيغة الأسمية.

الدلالة الثانية: الماضي المتجدد والمعتاد: تدل (كان) على الماضي المتجدد أو المعتاد إذا كان خبرها فعلًا مضارعًا. ويُفهم من ذلك أنَّ الحدثَ لم يقع مرة واحدة، بل كان يتكرر أو يستمر في زمنٍ ماضٍ ويتكرر هذا الفعل وتجدده أصبح عادة عند فاعله[(٣)].

(١) يُنظر: معاني النحو: ١/١٩١-١٩٢.

(٢) يُنظر: معاني النحو: ١/١٩١.

(٣) يُنظر: المصدر نفسه.

ويندرج هذا الاستعمال تحت نوعين رئيسين:

أ- **الماضي المستمر:** وهو ما يدل على فعل وقع في الماضي وكان مستمرًا في زمنه دون أن يفيد بالضرورة الاعتياد، نحو قولنا: (كنت أقرأ في كتابي فجاءني خالد)، أي: كنتُ مستمرًا على القراءة وقتَ مجيئهِ، فدلالة (كان) مع المضارع هنا هي استمرار الحدث في الماضي لا مجرد وقوعه[١].

ب-**الماضي المعتاد:** (دلالة العادة في الماضي): وهو ما يدلُ على أنَّ الفاعل كان يعتاد الفعل في الزمن الماضي، أي يكرره على وجه الدوام أو الغلبة نحو: (كان يقوم الليل). (كان زيد يفعل هذا الأمر)[٢].

ومن الشواهد القرآنية على ذلك قوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ [الذاريات: ١٧]، أي: كانت هذهِ عادتهم المستمرة في الماضي، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [مريم:٥٥]، فلا يدل التركيب على مجرد أمرٍ واحدٍ، بل على الاستمرار والمداومة.

ومن هذا الباب أيضًا قوله تعالى: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧]، إذ تدل (كان مع المضارع) في هذهِ المواضع على أفعالٍ متكررة أو عادات ماضية[٣].

وأمَّا عن موقف النحاة من ذلك صاحب البرهان إنَّ دلالة الفعل هنا تدل على الدوام ولكن ليست بشكل مطلق إنَّ عارضه ما يقتضي عدم الدوام، بقولهِ: (ومن هذا الباب الحكاية عن النبي (ﷺ) بلفظ (كان يصوم) و(كنا نفعل) وهو عند أكثر الفقهاء والأصوليين يفيد الدوام، فإنْ عارضهُ ما يقتضي عدم الدوام. مثل أن يروى (كان يسمع مرة) ثم نقل عنه (أنَّه يمسح ثلاثًا) فهذا من باب تخصيص العموم[٤].

وأمَّا عن طرح الدكتور فاضل في هذهِ المسألة، فهو يرى أنَّ دلالة كان على الدوام

(١) يُنظر: المعجزة القرآنية حقائق عليمة قاطعة: ٢٨٠/١.

(٢) يُنظر: معاني النحو: ١٩٢/١.

(٣) يُنظر: المصدر نفسه.

(٤) البرهان في علوم القرآن (ط المعرفة): ١٢٥/٤، ومعاني النحو: ١٩٣/١.

أيضًا تحقق إذا كان فيها جملة شرطية نحو قولنا: (كان محمد إذا سئل أعطى) فالشرط هنا يفيد التكرار كلما تحقق شرطه، مما يعزز معنى الاعتياد. ومن الشواهد القرآنية على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات:٣٥][(١)].

فلا يُراد أنَّهم استكبروا مرة واحدة بل إنَّ استكبارهم كان سلوكًا متكررًا معتادًا في حياتهم، وشرط هذا الاعتياد هو ردًا على دعوتهم لتوحيد الله وحده.

وخلاصة ما تقدم أنَّ (كان) مع الفعل المضارع عند النحاة تدل على: الاستمرار في الماضي، أو العادة والتكرار ويؤكد الدكتور فاضل السامرائي أنَّ السياق التكراري الدال عليه الفعل المضارع في خبر كان ولاسيما أسلوب الشرط المفهم دلالة العادة والتكرار عنصر أساسي في توجيه هذهِ الدلالة ومنح (كان) طاقة دلالية أوسع مما تقف عنده التقسيمات النحوية المجردة.

الدلالة الثالثة: توقع الحدوث في الماضي:

تأتي (كان) للدلالة على توقع وقوع الفعل في الزمن الماضي، وذلك إذا دخل خبرها في صيغة تدل على الاستقبال بالنسبة إلى الماضي، كقولنا: كان محمد سيفعل هذا، أي كان متوقعًا منه الفعل في الزمن الماضي، أو كان ينوي القيام به، من غير الجزم بتحققه بالفعل[(٢)].

وقد تناول النحو التقليدي هذهِ الدلالة، وصرَّح بها صراحة؛ إذ ورد في الخصائص لابن جني: (((كان زيد سيقوم أمس) أي كان متوقعًا منه القيام فيما مضى))[(٣)]، فالدلالة هنا لا تتجه إلى وقوع الفعل إنَّما إلى توقعه أو الاستعداد له في زمن سابق.

ويطرح الدكتور فاضل السامرائي هذهِ الدلالة في سياق حديثهِ عن معاني كان. ناقلًا ما قررهُ النحاة من غير أن يعقب عليه أو يرفضه، الأمر الذي يُفهم منه موافقته الضمنية على هذا التوجيه الدلالي، فالدكتور

(١) يُنظر: معاني النحو: ١٩٣/١.

(٢) يُنظر: المصدر نفسه.

(٣) الخصائص: ٣٢٥/٣، ومعاني النحو: ١٩٣/١، ويُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١٢٧/٤، ومباحث في علوم القرآن: ٢١٥/١.

في عرضهِ لهذه الصيغة، ينسجم مع التطور التقليدي الذي يفرق بين دلالة التوقع ودلالة التحقق، ويؤكد أنَّ (كان) لا تفيد هنا مجرد الزمن الماضي، بل تضيف بعدًا دلاليًا يتمثل في توقع الحدث أو نية وقوعه دون الجزم بحدوثهِ.

الدلالة الرابعة: الدوام والاستمرار

(بمعنى: لم يزل) من دلالات (كان) التي كثر فيها الخلاف بين النحاة دلالتهما على الدوام والاستمرار، أي مجيئها بمعنى (لم يزل).

وقد عرض الدكتور فاضل السامرائي هذهِ الدلالة عرضًا تحليليًا فبدأ بذكر آراء النحاة ثُمَّ رجح منها ما ذهب إليه الزمخشري وعدَّه القول الأقوم، فقد جعل بعض النحاة من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨١]، أي: لم نزل كذلك، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١] ونحوها[١].

وقد جاء في التسهيل لابن مالك: ((وتختص كان بمرادفة لم يزل كثيرًا))[٢]، كما ورد في همع الهوامع: ((وترادف كان لم يزل))[٣].

وهذا يفيد إن كان قد تدل على الدوام والاستمرار، وإنْ كان أصل معناها عند جمهور النحاة الدلالة على حصول ما دخلت في الزمن الماضي مع احتمال الانقطاع وهو مذهب الأكثرين[٤].

ومن المواضع التي تحمل فيها (كان) على الدوام ما ورد في صفات الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، أي: لم يزل متصفًا بذلك.

غير أنَّ هذا المعنى لم يسلِّم به عند جميع النحاة، فقد نقل الدكتور فاضل السامرائي رأي من أنكر دلالة كان على الاستمرار،

---

(١) يُنظر: المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة: ٢٨٠/١، وجامع الدروس العربية: ٢٧٢/٢، ومعاني النحو: ١٩٣/١.

(٢) شرح التسهيل لابن مالك: ٣٦٠/١، ومعاني النحو: ١٩٣/١.

(٣) همع الهوامع: ٤٣٧/١، ومعاني النحو: ١٩٣/١.

(٤) يُنظر: الأصول في النحو: ٨٢/١، واللباب في علل البناء والإعراب: ١٦٤/١.

ومنهم الرضي إذ قال: ((إنَّ بعضهم ذهب إلى أنَّ (كان) تدل على استمرار مضمون الخبر في جميع الزمن الماضي، وشبَّه ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[(١)].

ثُمَّ رَدَّ هذا الرأي قائلًا: أنَّ الاستمرار إنَّما يُفهم من قرينة وجوب اتصاف الله تعالى بهذهِ الصفات لا من لفظ (كان) نفسه، واستدل على ذلك بإمكان قولنا: (كان زيد قائمًا نصف ساعة ثم استيقظ. وقولنا: كان زيدٌ ضاربًا) من غير إفادة الاستمرار، ويرى الرضي أنَّ قياس هذا القول يقتضي أن تدل صيغتا المضارع والأمر (يكون وكن) أيضًا على الاستمرار[(٢)].

وبناءً على ذلك يقرر الرضي أنَّ (كان) في صيغة الماضي لا تدل إلا على الزمن الماضي وحده، وأنَّ الدلالة على الحاضر أو المستقبل إنَّما تكون بصيغة المضارع أ، الأمر لا بلفظ الماضي.

ثم نقل الدكتور فاضل السامرائي رأي الزمخشري وهو الذي رجَّحَهُ إذ قال في الكشاف عند قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، ((وكان عبارة عن وجود الشيء في زمانٍ ماضٍ على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كأنَّهُ قيل: وجدتم خير أمة))[(٣)].

ويرى الدكتور فاضل السامرائي أنَّ الصواب من هذهِ الأقوال هو قول الزمخشري؛ لأنَّ كان لا تفيد في ذاتها انقطاع المعنى ولا دوامه. وإنَّما تفيد اقتران مضمون الجملة بزمن ماضٍ فحسب، فإنَّ أفاد الكلام دوامًا أو انقطاعًا، فذلك مستفاد من دليل خارجي أو قرينة سياقية لا من لفظ كان نفسه.

فإذا وقع الإخبار بـ(كان) عن صفة ذاتية لله تعالى، فالمراد الإخبار عن وجودها وكونها غير مفارقة لذاته، وإذا وقع الإخبار بها عن صفة فعلية، فالمراد تارة الإخبار

(١) شرح الرضي على الكافية: ١٨٩/٤، ومعاني النحو: ١٩٤/١.
(٢) يُنظر: المصادر أنفسها.
(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٤٢٩/١، ومعاني النحو: ١٩٤/١.

قدرته عليها في الأزل، كقوله: كان الله خالقًا ورازقًا ومجيبًا ومهيمنًا.

وتارة تحقيق نسبتها إليه، كقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وتارة ابتداء الفعل وإنشاؤه كقولهِ تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥٨]، أمَّا إذا ورد الإخبار بـ(كان) عن صفات الآدميين، فالمراد التنبيه على أنَّها غريزة وطبيعة مذكورة فيهم كقولهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[1] [الإسراء:١١].

ويخلص الدكتور فاضل السامرائي إلى أنَّهُ يرى في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ إنَّ المعنى هو بيان كون الشيء وحقيقته، أي أنَّ الله كونه سميع بصير، أي هذهِ حقيقته وصفته، وإنَّ الإنسان عجول منذ خلق[2].

يتبين من خلال هذا العرض أنَّ دلالة (كان) على الدوام والاستمرار من أكثر الدلالات خلافًا بين النحاة؛ فبينما ذهب بعضهم إل أنَّها تأتي كثيرًا بمعنى لم يزل ولاسيما في سياق صفات الله تعالى، أنكر آخرون ذلك وعلى رأسهم الرضي، وعدوا الاستمرار مستفادًا من قرائن السياق لا من لفظ كان نفسه.

وقد رجَّحَ الدكتور فاضل السامرائي رأي الزمخشري القائل إنَّ (كان) لا تدل في ذاتها إلا على اقتران مضمون الجملة بزمنٍ ماضٍ على سبيل الإبهام، من غير دلالة لازمة على انقطاع أو الدوام، فإنْ أفاد الكلام استمرارًا أو ثبوتًا، فذلك راجع إلى طبيعة الخبر أو إلى القرائن السياقية.

إذًا الرضي والزمخشري متفقان على أنَّ (كان) لا تفيد الاستمرار أو الانقطاع بذاتها، وإنَّما ذلك مستفادٌ من قرينة خارجية، أي أنَّ الاستمرار فيها ليس نحويًا مرتبطًا بـ(كان) ذاتها، وإنَّما استمرارًا فعليًا مستفاد من قرائن تأتي في خبرها، ولكن الاختلاف بينهما أنَّ الزمخشري يضع تعريفًا دقيقًا مجردًا يحدد فيه وظيفة (كان) تحديدًا اصطلاحيًا هو: اقتران المعنى بزمنٍ ماضٍ فقط، وأمَّا الرضي فهو يتكلم جدليًا نقطيًا يرد على من

(١) يُنظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٤٢٩/١، والمعجزة القرآنية: ٢٨٠/١، ومعاني النحو: ١٩٤/١–١٩٥.

(٢) يُنظر: معاني النحو: ١٩٥/١.

قال أنَّ دلالة الاستمرار مستفادة من (كان) نفسها.

وبذلك يكون السامرائي قد قدم طرحًا دلاليًا يتجاوز التقيد الزمني الصرف، ويجعل منهم معنى (كان) مرتبطًا بالسياق ونوع الصفة المسندة، سواء أكانت ذاتية لله تعالى أم فعلية، أم صفة غريزية في الإنسان.

الدلالة الخامسة: الدلالة على الحال:

تناول بعض النحاة دلالة (كان) على الحال[١]؛ إلّا أنَّ الدكتور فاضل السامرائي لم يعرض هذهِ الدلالة في إطارها النحوي التقليدي، وإنَّما قدمها من خلال الاستشهاد بالنص القرآني، عارضًا الآيات التي قيل إنَّ (كان) فيها تدل على الحال، من غير نسبة صريحة لهذا الرأي إلى النحو القديم فجاء طرحه بصيغة المبني للمجهول.

ومن الآيات التي جُعلت من هذا الباب قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]،، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣][٢].

وبعد عرض هذهِ الشواهد القرآنية يصرّح الدكتور فاضل السامرائي برأيهِ، فيذهب إلى أنَّ (كان) في هذهِ المواضع ليست للحال، وإنَّما هي بمعنى المضي، فمعنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ عنده: وجدتم خير أمة[٣].

ثم ينسب آراءً مجهولة تتناسب مع رأيه وهي أنَّهُ قيل في توجيه الآية: كنتم في علم الله خير أمة.

وقيل: كنتم في الأمم مذكورين بأنَّكم خير أمة موصوفين بذلك، وكل هذهِ التوجيهات

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١٢٧/٤، ومباحث في علوم القرآن: ٢١٥/١، وأنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل: ٨٣/١، والكنّاش في فني النحو والصرف: ٣٩/٢، والموسوعة القرآنية: ١٩٤/٢، ومعاني النحو: ١٩٦.

(٢) يُنظر: معاني النحو: ١٩٦/١.

(٣) يُنظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٤٢٩/١، وتفسير النسفي: ١٧٣/١، والبحر المحيط: ٣٠٠/٣، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون: ٣٤٨/٣، واللباب في علوم الكتاب: ٤٦٣/٥، والتفسير الوسيط: ٢١٢/٢.

تعود إلى معنى الثبوت في الزمن الماضي لا إلى الدلالة على الحال[١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ فليس المراد أنَّ الصلاة في الحال فقط كذلك، وإنَّما المعنى أنَّها فُرضت عليهم وكتبت، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]، أي: فرض عليكم، فدلالة (كان) هنا راجعة إلى الإيجاب والتشريع الواقع في الزمن الماضي، لا إلى مجرد الحال وعلى هذا الأساس، يرى الدكتور فاضل السامرائي أنَّ حمل (كان) على الدلالة على الحال غير دقيق، وأنَّ الأصل في معناها هو إفادة المضي.

وما يتوهم من دلالة الحال إنَّما هو ناشئٌ عن طبيعة الخبر أو عن السياق لا عن لفظ كان نفسه[٢].

ويتضح من خلال طرح الدكتور فاضل السامرائي أنَّ ما نُسِبَ إلى (كان) من دلالة على الحال لا يقوم على أساس دلالي مستقل، وإنَّما هو توهم ناشئ عن السياق، أو عن طبيعة الخبر المسند إليها، فالدكتور بعد استعراض الشواهد القرآنية التي قيل بدلالتها على الحال، يقرر أنَّ (كان) فيها باقية على أصل معناها الدال على المضي، وإنَّ المعاني التي تُفهم من الحاضر أو الثبوت إنَّما ترجع إلى قرائن خارجية، كالعلم الإلهي، أو التشريع السابق، أو الثبوت الأزلي للصفات، لا إلى لفظ (كان) ذاته، وبذلك ينسجم هذا التوجيه مع منهجه العام في دراستهِ دلالات (كان) القائم على ردّ المعاني المختلفة فيها إلى الأصل الزمني للفعل، وجعل السياق هو العنصر الحاسم في توسيع الدلالة أو توجيهها لا الصيغة النحوية وحدها.

الدلالة السادسة: دلالة الاستقبال: يرى الدكتور فاضل السامرائي إنَّ من دلالات (كان) ما يفهم منه الاستقبال غير أنَّهُ، كما في الدلالة على الحال السابقة لا يعرض هذهِ الدلالة في إطارها المصطلحي في النحو التقليدي، وإنَّما يتناولها من خلال الاستشهاد

(١) يُنظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٤٢٩/١، وتفسير الرازي: ٣٢٤/٨، وتفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل: ٤٠٣/١، وفتح البيان في مقاصد القرآن: ٣١٠/٢، ومحاسن التأويل: ٣٨٥/٢، ومعاني النحو: ١٩٦/١.

(٢) يُنظر: معاني النحو: ١٩٦/١.

بالنص القرآني مستعرضًا الآيات التي جاءت فيها (كان) متعلقة بأحداثٍ مستقبلية.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان:٥]، وقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾ [الكهف:١٠٧][(١)].

فهذهِ الآيات تتحدث عن وقائع لم تقع في زمن الخطاب، ومع ذلك وردت (كان) بصيغة الماضي، مما حمل بعضهم على القول بدلالتها على الاستقبال[(٢)].

وبعد عرض هذهِ الشواهد يبين الدكتور فاضل السامرائي رأيه، فيقرر أنَّ هذا الاستعمال لا يُخرج (كان) عن دلالتها الأصلية عن المضي، وإنَّما هو من باب تنزيل المستقبل منزلة الماضي، وذلك للتعبير عن تحقق الوقوع وقطع الشك فيه، حتى كأنَّهُ قد وقع وانقضى، ويشبه ذلك بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧٣]، إذ عبر عن أحداثٍ مستقبلية بصيغة الماضي تأكيدًا لتحققها، ويقرر السامرائي أنَّ هذا الأسلوب شائع في القرآن الكريم؛ إذ يُعبر عن المستقبل بلفظ الماضي لدلالة اليقين والجزم بوقوعه، فكما أنَّ الماضي متحقق لا شكَّ فيه، فكذلك هذهِ الأحداث المستقبلية الموعودة، فهي في حكم الواقع المحقق.

وبذلك يخلص إلى أنَّ دلالة الاستقبال في (كان) ليست دلالة ذاتية مستقلة، وإنَّما هي دلالة سياقية بلاغية، يُراد بها توكيد الوقوع وتحقيق الوعد أو الوعيد مع بقاء كان على أصل معناها الدال على المضي[(٣)].

يتضحُ من تحليل السامرائي أنَّ ما يُفهم من دلالة كان على الاستقبال لا يُعدُّ خروجًا عن معناها الأصلي.

بل هو استعمال بلاغي يقوم على تنزيل المستقبل منزلة الماضي، لتأكيد تحقق الوقوع

(١) يُنظر: معاني النحو: ١٩٦/١-١٩٧.

(٢) روح المعاني: ١٥١-١٥٣، والبرهان في علوم القرآن: ١٢٧/٤، ومعاني النحو: ١٩٦-١٩٧.

(٣) يُنظر: معاني النحو: ١٩٧/١.

ورفع الشك عنه، فورود (كان) في سياق الحديث عن أحداثٍ مستقبلية ولا سيما في مشاهد اليوم الآخر ووعد المؤمنين ووعيد الكافرين، إنَّما يُريد به تصوير هذهِ الوقائع على أنَّها في حكم المنقضي الواقع كما يُعبر عن الماضي الذي لا ريب في تحققه، وبذلك ينسجم هذا التوجيه مع منهج السامرائي الدلالي القائم على ردّ ما يتوهم من معانٍ جديدة إلى السياق والأسلوب القرآني مع إبقاء (كان) على أصل دلالتها الزمنية، وجعل البلاغة والسياق هما العنصرين الحاسمين في توجيه المعنى.

الدلالة السابعة: مجيء (كان) بمعنى صار.

استهل الدكتور فاضل السامرائي عرض هذهِ الدلالة بصيغة المبني للمجهول ، فذكر أنَّ (كان) قد جُعلت في بعض المواضع القرآنية بمعنى (صار)، مستعرضًا عددًا من الآيات التي قيل إنَّ (كان) فيها تدل على التحول والصيرورة ومستندًا في هذا التوجيه إلى ما قرره ابن يعيش في شرحه.

ومن الآيات التي أُدرجت في هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ:١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [البأ: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة:٥-٦]، وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴿٧﴾﴾[(١)].

وقد جاء في شرح ابن يعيش: ((والعرب تستعير هذهِ الأفعال فتوقع بعضها مكان بعض، فأوقعوا (كان) هنا موقع (صار) لما بينها من التقارب في المعنى، لأنَّ (كان) لما انقطع وانتقل من حال إلى حال، ألا تراك تقول: (قد كنتُ غائبًا) وأنا الآن حاضرٌ؟ فـ(صار) كذلك تفيد الانتقال نحو قولك: (صار زيدُا غنيًا)))[(٢)].

غير أنَّ الدكتور فاضل السامرائي يعترض على هذا التوجيه ويرى أنَّ القول بأنَّ (كان) بمعنى (صار) غير دقيق، وأنَّ لها في هذهِ المواضع دلالات مغايرة، ويستدل على ذلك بأنَّهُ لو أبدلت (صار) بـ(كان) في هذهِ الآيات لما أدت المعنى نفسه؛ فلو قيل

(١) يُنظر: المصدر نفسه.

(٢) شرح المفصل لابن يعيش: ٣٥١/٤، ومعاني النحو: ١٩٧/١، ويُنظر: البرهان في علوم القرآن: ١٢٧/٤.

بدل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾ [الرحمن:٣٧]، فصارت وردة، أو بدل قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾ [النبأ:١٩] لما استقام المعنى كما هو في النص القرآني.

ويعلل السامرائي ذلك بأنَّ المقصود بـ(صار) هو التحول والصيرورة ، وهي قد تقتضي امتدادًا زمنيًا، كما في قولنا: صار الطحين حجرًا، وصار محمدُ شيخًا؛ إذ يدلُّ ذلك على انتقال تدريجي من حال إلى حال.

أمَّا (كان) في هذهِ المواضع القرآنية فإنَّها على حدِ تعبيرهِ (تطوي الزمن) ولا تشعر بامتداد التحول ولا بتدرجه.

فقولهُ تعالى: ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ يدل على أنَّ هذا هو شأنُ السماء ووجودها في ذلك المشهد، وكأنَّ هذا حالها منذ الماضي، لا نتيجة تحول زمني معتمد، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦﴾ فالمعنى أنَّ حالتها الجديدة حاصلة قبل النظر والمشاهدة، وكأنَّها كذلك منذ القدم لا نها صارت كذلك بعد زمن، وبذلك يخلص السامرائي إلى أنَّ (كان) في هذهِ المواضع لا تدل على الصيرورة بمعناها الزمني، وإنَّما تفيد تقرير الحال وتثبين الهيئة، مع طيّ الزمن وإلغاء الإحساس بالتحول التدريجي وهو معنىٌ لا تؤديه (صار) على الوجه نفسه[(١)].

الدلالة الثامنة: مجيء (كان) بمعنى ينبغي وبمعنى القدرة والاستطاعة[(٢)].

ويبدو أنَّ الدكتور فاضل السامرائي في هذهِ الدلالة يوافق ما قرره النحو التقليدي؛ إذ لم يعمد إلى مناقشتها أو نقدها، بل اكتفى بعرضها وتمثيلها بأمثلة لغوية وشواهد قرآنية، مستندًا فيها إلى ما قررهُ النحاة، والمفسرون من قبل، من غير أنْ يُصرح برأي مخالف أو توجيه جديد، فمن أمثلتها: قوله: (ما كان له أن يفعله) أي: ما ينبغي له ذلك.

ومثلهُ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل

(١) يُنظر: معاني النحو: ١٩٧/١–١٩٨.
(٢) يُنظر: تفسير الطبري: ٥٣٨/٦، والكشف والبيان عن تفسير القرآن: ٤٥٧/٨، والهداية إلى بلوغ النهاية: ١٥٧/٢، ومعاني النحو: ١٩٨/١.

عمران:٧٩]، أي: ما ينبغي له ذلك، وهو ما تؤكده دلالة قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾[(١)] [الفرقان:١٨]، ثم انتقل السامرائي إلى نقل ما ورد في كتب التفسير، فقال: جاء في الكشاف: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ ، أي: ما ينبغي لي[(٢)]، كما تأتي (كان) بمعنى القدرة والاستطاعة: نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ [النمل:٦٠]، أي: لا تستطيعون ذلك[(٣)].

وجاء في الإتقان أنَّ (كان) ترد ((بمعنى (ينبغي) نحو قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ وقوله: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾))[(٤)].

كما جاء في التفسير الكبير للرازي في قوله تعالى: ﴿ كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ [الأنفال:٦٧]، أنَّ معنى (ما كان) هو النفي والتنزيه، أي: ما يجب وما ينبغي أن يكون له ذلك.

ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ﴾[(٥)] [مريم:٣٥].

ومن خلال هذا العرض يتضحُ أنَّ الدكتور فاضل السامرائي لم يخرج في هذهِ الدلالة عن إطار النحو التقليدي، بل وافقه وأقر ما قرره النحاة والمفسرون من أنَّ (كان) قد تأتي في سياق النفي للدلالة على الامتناع، أو عدم الاستحقاق، أو نفي القدرة والاستطاعة، وذلك بحسب السياق من غير أن يحمل دلالة زمنية ظاهرة، وإنَّما يجعلها أداة للتنزيه، أو نفي الإمكان واللياقة.

الدلالة التاسعة: دلالات (كان) التامة:

يرى الدكتور فاضل السامرائي أنَّ انتقال كان من النقصان إلى التمام لا يكون انتقالًا شكليًا فحسب، بل انتقالًا دلاليًا يقتضي

(١) يُنظر: معاني النحو: ١٩٨/١.
(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٧٢٦/١، ومعاني النحو: ١٩٨/١.
(٣) يُنظر: معاني النحو: ١٩٨/١.
(٤) الإتقان في علوم القرآن: ٢٥٧/٢، ومعاني النحو: ١٩٨/١.
(٥) مفاتيح الغيب: ٥١/١٥، ومعاني النحو: ١٩٨/١.

أن تحمل كل معاني أفعال تامة، أي: أن تأتي بمعنى: (وجد، أو وقع، أو حصل) أو غير ذلك من الأفعال الدالة على الحدث الكامل، ويستند السامرائي في هذا التوجيه إلى الاستعمال القرآني من جهة، وإلى ما قرره النحو التقليدي من جهة أخرى، ولاسيما ما جاء عن شيخ المدرسة البصرية سيبويه[(١)].

فقد قرر النحاة أنَّ (كان) قد تقتصر على مرفوعها فتكون فعلًا تامًا بمعنى (وجد أو وقع) كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة:٢٨٠]، أي: وإن وجد ذو عسرة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس:٨٢]، أي: فيقع ويحدث.

ومن ذلك قولهم: المقدور كائن، أي: واضح لا محالة[(٢)].

وقد صرَّحَ سيبويه بهذا المعنى فقال: ((قد يكون لكان موضع آخر يقتصر على الفاعل فيه، تقول: قد كان عبد الله، أي قد خُلق، وقد كان الأمر، أي وقع الأمر))[(٣)].

وهذا نصٌ صريحٌ في أنَّ (كان) قد تخرج عن النقصان إلى التمام، فتؤدي معنى الحدث المكتمل من غير حاجة إلى خبر.

كما أشار النحاة إلى مجيء (كان) بمعنى أفعال تامة أخرى بحسب الاستعمال العربي، فتأتي بمعنى (غزل) يقال: كانت المرأة الصوف إذا غزلته، وتأتي بمعنى (كفل)، يقال: كان فلان الصبي إذا كفله[(٤)].

وهذهِ الاستعمالات تؤكد أنَّ (كان) ليست محصورة في معنى واحد، وإنَّما تتنوع دلالتها بتنوع السياق.

غير أنَّ الواضح من طرح الدكتور فاضل السامرائي في جميع ما سبق من دلالاتِ (كان)، أنَّهُ ينطلق من أصل دلالي ثابت، وهو أنَّ (كان) في أصلها فعلٌ ناقصٌ

(١) يُنظر: معاني النحو: ١٩٩/١.
(٢) يُنظر: المحرر الوجيز: ٢٣/٢، والجامع لأحكام القرآن: ٤٠٩/٢، والبحر المحيط في التفسير: ٧١٦/٢، ومعاني النحو: ١٩٩/١.
(٣) الكتاب: ٤٦/١، ومعاني النحو: ١٩٩/١.
(٤) يُنظر: ارتشاف الضرب: ١١٥٤/٣، والتذييل والتكميل: ١٣٩٠/٤، وهمع الهوامع: ٤٢٥/١، ومعاني النحو: ١٩٩/١.

دالٌ على الزمانِ فقط، سواء أكان ذلك في صيغة الماضي، أم المضارع، أم الأمر، بحسب تصرف الفعل. أمَّا الدلالات المتنوعة التي تكتسبها (كان) سواء أكانت دلالة نقص أو تمام، أو دلالة وقوع أو تحقق، فإنَّما تنشأ من السياق التركيبي الذي تنتظم فيه.

وعليه يخلص السامرائي إلى أنَّ السياق هو العنصر الحاسم في توجيه دلالة (كان) وأنَّ الفعل في ذاته لا يحمل هذهِ الدلالات المتعددة استقلالًا، وإنَّما يكتسبها من خلال علاقتهِ بما يحيط بهِ في التركيب، فالسياق هو الذي يمنح (كان) قيمتها الدلالية النهائية، ويحدد ما إذا كانت ناقصة دالة على الزمان، أم تامّة دالة على الحدث والوقوع.

الدلالة العاشرة: دلالة الماضي، ودلالة التأكيد في زيادة (كان):

يرى الدكتور فاضل السامرائي أنَّ كان قد تحمل دلالتين مهمتين عند زيادتها في التركيب: هما: دلالة الزمن الماضي، ودلالة التأكيد، وذلك حين تأتي زائدة في الإسناد، أي لا يؤتى بها للعمل الإعرابي، وإنَّما لأغراض دلالية[١]، وينطلق في عرضه لهذهِ الدلالة من مقولات النحو التقليدي، ثم يعقب عليها بما يراه أدق وأقرب إلى الاستعمال اللغوي. فقد ذكر النحاة لهذهِ الزيادة غرضين رئيسين:

أولًا: الدالة على الزمن الماضي: وذلك كما في قولهم: ما كان أحسن زيدًا، إذ تدل (كان) على أنَّ التعجب واقع في الزمن الماضي، وقد جاء في الكتاب لسيبويه: ((وتقول: ما كان أحسن زيدًا، فتذكر (كان) لتدل أنَّهُ فيما مضى))[٢]، ولهذا ذهب بعض النحاة إلى عدم تسمية زيادة حقيقية؛ لأنَّ كان أفادت معنى زمنيًا.

وقد ناقش الرضي هذا الموضع في شرح الكافية، فذهب إلى أنَّ الزائد عندهم لا يفيد إلا محض التأكيد، فإذا أفادت كان الزمن الماضي لم تكن زائدة حقيقة، وإنَّما سميت زائدة مجازًا؛ لعدم عملها، وعلل ذلك بأنَّ (كان) جُردت في هذا الاستعمال من دلالة الحدث المطلق، ويبقى منها الزمن وحده،

(١) يُنظر: معاني النحو: ١٩٩/١–٢٠٠.
(٢) الكتاب: ٧٣/١، ومعاني النحو: ١٩٩/١.

والزمن لا يطلب مرفوعًا ولا منصوبًا، فلذلك لم تعمل وبقيت دالة على الماضي فقط[١].

ويرى السامرائي أنَّ الخلافَ في هذا الموضع لفظي في حقيقتهِ؛ لأنَّ الجميع متفقون على أنَّ (كان) هنا غير عاملة، وإنَّما جيء بها للدلالة على الزمن، سواء سُميت زائدة أم غير زائدة.

كما يعقب على قول الرضي: (إنَّ الزائدة لا يفيد إلا محض التأكيد) بأنَّ فيه نظر؛ إذ إنَّ في العربية حروفًا زائدة لا تفيد التأكيد وحده كـ(من) الاستغراقية في نحو: هل جاءك من رجل؟ فهي زائد لا لمحض التأكيد بل لدفع توهم الوحدة، وكذلك (لا) في نحو: (جئت لا زاد) فهي زائدة بين العامل والمعمول، ومع ذلك تفيد معنى النفي.

فزيادة (كان) للدلالة على الزمن الماضي نظير ذلك وليست خارجة عن القياس[٢].

ثانيًا: الزيادة لأجل التأكيد: وقد تأتي (كان) زائدة لا للدلالة على الزمن وإنَّما لمحض التأكيد وتقوية المعنى، كما في قول الشاعر[٣]:

جِيَادُ بَنِي أَبِي بَكْرٍتَسَامَى عَلَى كَانَ المُسَوَّمَةِ العِرَابِ

فليس في هذا الموضع دلالة على الزمن، وإنَّما جيء بـ(كان) لتأكيد المعنى[٤].

وجاء في المقتضب في نحو قولنا: إنَّ زيدًا كان منطلقًا، إنَّ (كان) زائدة مؤكدة للكلام، ومثله قول بعض العرب: ((ولدت فاطمة بنت الخرشب الكلمة من بني عبس لم يوجد كان مثلهم))[٥]، فزيادتها هنا لتأكيد المعنى[٦].

كما بيَّنَ النحاة أنَّ (كان) قد تزاد وحدها نحو: على (كان) المسومة العراب، وقد تزاد مع مرفوعها، نحو: وجيران لنا كانوا كرام،

---

(١) يُنظر: شرح الرضي على الكافية: ٤/١٩٠-١٩١، ومعاني النحو: ١/١٩٩.

(٢) يُنظر: معاني النحو: ١/١٩٩-٢٠٠.

(٣) نسب أبو البقاء العكبري في شرح ديوان المتنبي: ٤/٩، هذا البيت للفرزدق ولكني لم أجد هذا البيت في ديوان الفرزدق.

(٤) يُنظر: معاني النحو: ١/٢٠٠.

(٥) المقتضب: ٤/١١٦، ومعاني النحو: ١/٢٠٠.

(٦) يُنظر: شرح التصريح: ١/٢٥٣، ومعاني النحو: ١/٢٠٠.

وهذا قريب من إلغاء ظن مع مرفوعها في نحو قولنا: زيد ظننت قائم[١].

وأشار الدكتور فاضل السامرائي إلى أنَّ الأمثل في زيادة (كان) أن تكون بلفظ الماضي وشذَّ زيادتها بلفظ المضارع كما في قول أم عقيل[٢]:

أنت تكون ماجدًا نبيلًا

ومن خلال هذا العرض يتضحُ أنَّ الدكتور فاضل السامرائي لا يرفض ما قرره النحو التقليدي في زيادة (كان) وإنَّما يُعيد تفسيره تفسيرًا دلاليًا فيجعل الزيادة ذات وظيفة معنوية واضحة، أمَّا للدلالة على الزمن الماضي أو للتوكيد، مع التأكيد على دقة النظام الدلالي في العربية، إذ ترتبط الزيادة اللفظية بزيادة معنوية يحددها السياق.

الخاتمة:

أظهر البحثُ أنَّ النحو التقليدي، وإن أحسن تصنيف الاستعمالات الإعرابية لـ(كان) قد ركز في الغالب على الجانب الشكلي، في حين اتجه الدكتور فاضل السامرائي إلى مقاربة دلالية سياقية أعادت تفسير تلك الاستعمالات في ضوء المعنى القرآني والاستعمال العربي الأصيل، وقد مكنه هذا المنهج من رد كثير من الدلالات المختلف فيها إلى أصل واحد يتمثل في الدلالة الزمنية أو الاقتران الزمني مع اعتبار السياق عنصرًا مفسرًا حاسمًا. ويمكن إجمال أهم النتائج التي توصل إليها البحث في النقاط الآتية:

١- الأصل الدلالي للفعل (كان) هو الدلالة على الزمن، وأن تصرفه بين

---

(١) يُنظر: الكتاب: ١٥٣/٢، والمقتضب: ١٦/٤، وشرح الكافية الشافية: ٤١٢/١، ومعاني النحو: ٢٠١/١.

(٢) يُنظر: معاني النحو: ٢٠١/١.

الماضي، والمضارع ، والأمر لا يخرجه عن هذا الأصل.

٢-كثير من الدلالات المنسوبة إلى (كان) في النحو التقليدي، كالدوام، والحال، والاستقبال، والصيرورة ليست دلالات ذاتية وإنَّما دلالات سياقية تستفاد من التركيب والمقام.

٣-طرح الدكتور فاضل السامرائي لا يتعارض في جوهره مع النحو التقليدي. بل يعيد تأويله تأويلًا دلاليًا معتمدًا على السياق القرآني بوصفهِ المرجع الأعلى للاستعمال.

٤-انتقال كان من النقصان إلى التمام انتقال دلالي مشروط بالسياق، تتحول فيه من أداة اقتران زمني إلى فعل دال على الحدث والوقوع.

٥-القول بزيادة (كان) لا يعني خلوها من المعنى، بل يدل على وظيفة دلالية إضافية كالدلالة على الزمن الماضي، أو على التوكيد، وهو ما ينسجم مع مبدأ الزيادة المعنوية في العربية.

٦-يتبين من خلال الدراسة أنَّ الخلاف بين النحاة في كثير من المواضع كان خلافًا اصطلاحيًا أو تعبيريًا، أكثر منه خلافًا دلاليًا حقيقيًا.

٧-يؤكد البحث أهمية المنهج السياقي في دراسة القضايا النحوية، وضرورة الإفادة من الدراسات الدلالية الحديثة في تجديد النظر إلى التراث النحوي.

وفي الختام نرى أنَّ هذا البحث يفتح المجال أمام دراسات لاحقة تتناول الأفعال الناسخة الأخرى في ضوء المنهج الدلالي السياقي، أو تقارن بين مناهج الدرس النحوي القديم والحديث في تفسير الظواهر اللغوية بما يسهم في تعميق فهم النسبة الدلالية للغة العربية.

وختامًا نسأل الله تعالى أن يوفقنا للقول السديد، وأن يجعل هذا العمل نافعًا ومقبولًا، وأن يعفوا عمّا قد يكون فيه من تقصير أو خطأ، إنَّهُ وليُ ذلك والقادرُ عليه.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم:

١ـ **الإتقان في علوم القرآن:** عبد الرحمن بن أبي بكر بن جلال الدين السيوطي (ت:٩١١ه)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢- **ارتشاف الضرب من لسان العرب:** أبو حيان محمد بن حبان أثير الأندلسي (ت:٧٤٥ه)، تحقيق وشرح ودراسة: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤١٨ه-١٩٩٨م.

٣- **أسرار التكرار في القرآن المسمة البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان:** محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراءات (ت نحو ٥٠٥ه)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا (ت:١٤٠٣ه)، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة.

٤- **الأصول في النحو:** أبو بكر محمد السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج (ت:٣١٦ه)، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة لبنان، بيروت.

٥- **إعراب القرآن:** أبو جعفر النحاس أحمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت:٣٣٨ه)، وضع حواشيه وعلّق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢ه.

٦- **أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل:** زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر عبد القادر الحنفي الرازي (ت:٦٦٦ه)، تحقيق: د. عبد الرحمن إبراهيم المطروي، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية- الرياض، ط١، ١٤١٣ه-١٩٩١م.

٧- **اللباب في علل البناء والإعراب:** أبو البقاء عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (ت:٦١٦ه)، تحقيق: د. عبد الإله النبهان، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٦ه-١٩٩٥م.

٨- **البحر المحيط في التفسير:** أبو حيان أثير الدين الأندلسي (ت:٧٤٥ه)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت، ط١، ١٤٢٠ه.

٩- **البرهان في علوم القرآن:** أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت:٧٩٤ه)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط١، ١٣٧٦ه-١٩٥٧م.

١٠- **التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل:** أبو حيان الأندلسي (٦٥٤-٧٤٥ه)، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم بدمشق، ط١، (١٤١٨-١٤٤٤ه) (١٩٩٧-٢٠٢٢م).

١١- **تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن:** أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠ه)ـ تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٢ه-٢٠٠١م.

١٢- **الجامع لأحكام القرآن:** أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية- القاهرة.

١٣- **جامع الدروس العربية:** مصطفى بن محمد بن سليم الغلاييني (ت: ١٣٦٤ه)، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط٢٨، ١٤١٤ه-١٩٩٣م.

١٤- **الخصائص:** أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت:٣٩٢ه)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤.

١٥- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون:** أبو العباس شهاب الدين أحمد المعروف بالسمين الحلبي (ت:٧٥٦ه)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم-دمشق.

١٦- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:** شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت:١٢٧٠ه)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥ه.

١٧- **شرح تسهيل الفوائد:** محمد بن عبد الله جمال الدين (ت:٦٧٢ه)، تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، دار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٠ه-١٩٩٠م.

١٨- **شرح التصريح على التوضيح:** خالد بن عبد الله المعروف بالوقاد (ت:٩٠٥ه)، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢١ه-٢٠٠٠م.

١٩- **شرح ديوان المتنبي:** أبو البقاء بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (ت:٦١٦ه)، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت.

٢٠- **شرح الرضي على الكافية:** رضي الدين الأستراباذي (ت:٦٨٤ه)، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر.

٢١- **شرح الكافية الشافية:** محمد بن عبد الله جمال الدين (ت:٦٧٢ه)، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى، ط١.

٢٢- **شرح المفصل للزمخشري:** يعيش بن علي بن يعيش، موفق الدين الأسدي (ت:٦٤٣ه)، قدم له: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٢ه-٢٠٠١م.

٢٣- **فتح البيان في مقاصد القرآن:** أبو الطيب محمد صديق خان البخاري القنوجي (ت:١٣٠٧ه)، عني بطبعهِ وقدم له وراجعه: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا- بيروت، ١٤١٢ه-١٩٩٢م.

٢٤- **الكتاب:** عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، الملقب بسيبويه (ت:١٨٠ه)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٨ه-١٩٨٨م.

٢٥- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:** أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

٢٦- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن:** أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي (ت:٤٢٧ه)، أشرف على إخراجه: د. صلاح باعثمان، د. حسن الغزالي، أ.د زين مهارش، أ.د أمين باشنه، تحقيق: عدد من الباحثين، دار التفسير، جدة- المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٦ه-٢٠١٥م.

٢٧- **الكناش في فني النحو والصرف:** أبو الفداء عماد إسماعيل بن علي بن محمود (ت:٧٣٢ه)، دراسة وتحقيق: د. رياض بن حسن الخوام، المكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م.

٢٨- **مباحث في علوم القرآن:** صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط٢٤، ٢٠٠٠م.

٢٩- **محاسن التأويل:** محمد جمال الدين بن محمد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت:١٣٣٢ه)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٨ه.

٣٠- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:** أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المحاربي (ت:٥٤٢ه)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢ه.

٣١- **معاني النحو:** د. فاضل صالح السامرائي، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، ١٤٢٨ه-٢٠٠٧م.

٣٢- **معترك الأقران في إعجاز القرآن:** عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت:٩١١ه)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٨ه-١٩٨٨م.

٣٣- **المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة:** أحمد عمر أبو شوفه، دار الكتب الوطنية، ليبيا، ٢٠٠٣م.

٣٤- **مفاتيح الغيب:** أبو عبد الله الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت:٦٠٦ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٠ه.

٣٥- **المقتضب:** محمد بن يزيد المعروف بالمبرد (ت:٢٨٥ه)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.

٣٦- **الموسوعة القرآنية:** إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (ت:١٤١٤ه)، مؤسسة سجل العرب، ط١، ١٤٠٥ه.

٣٧- **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره:** أبو محمد مكي بن أبي طالب الأندلسي القرطبي المالكي (ت:٤٣٧ه)، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف: أ.د الشاهد البوبندخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩ه-٢٠٠٨م.

٣٨- **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع:** عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت:٩١١ه)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر.

٣٩- **لباب التأويل في معاني التنزيل:** علاء الدين بن محمد المعروف بالخازن (ت:٧٤١ه)، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥ه.